د. بينار أكبينار
أستاذ مساعد في دراسات الخليج، قسم الشؤون الدولية وبرنامج دراسات الخليج
كلية الآداب والعلوم - جامعة قطر

الدبلوماسية الإنسانية لدولة قطر:

الطابع الإنساني في إدارة شؤون الدولة

في عصر أصبحت فيه الأعمال الإنسانية تُشكِّل التصوُّرات العالمية على نحو متزايد، برزت دولة قطر بصفتها إحدى أكبر الدول المانحة بروزًا واتساقًا على المسرح العالمي. وبالنسبة لدولة ذات مساحة جغرافية صغيرة وقدرات عسكرية محدودة، ولكنها تتمتع بموارد اقتصادية هائلة، وفَّرت الدبلوماسية الإنسانية شكلاً بديلاً من أشكال التأثير، ووسيلة لإبراز القوة الناعمة وإضفاء الشرعية والمساهمة في المجتمع العالمي من خلال الأعمال الإنسانية.

وبالإشارة إلى استثمار الأعمال الإنسانية في دفع الأهداف الدبلوماسية، وضمان الوصول الآمن أثناء الأزمات، وتشكيل التصوُّرات الدولية، هيمنت من الناحية التاريخية المؤسسات الغربية على الدبلوماسية الإنسانية، ولاسِيَّما الحركة الدولية لجمعيتي الصليب الأحمر والهلال الأحمر. ومع ذلك، ففي السنوات الأخيرة، تعاظم دور جهات فاعلة غير غربية مثل دولة قطر التي أصبحت جهة فاعلة مؤثرة في المجال الإنساني. وما يميز دولة قطر في هذا المجال التنافسي ليس مجرد حجم مساعداتها ولكن الطريقة التي تُحيك بها المساعدات على نطاق أوسع من التكافل والمسؤولية الأخلاقية والدبلوماسية.

ونظرًا لتأصله في رؤية قطر الوطنية 2030، يعكس هذا التوجه نحو الأعمال الإنسانية تطلعات دولة قطر الكبيرة التي تهدف إلى إقران التنمية الدولية بالمسؤولية العالمية من خلال الدبلوماسية التي تحركها الأعمال الإنسانية. ومن خلال أنشطتها الإنسانية، رسَّخت دولة قطر مكانتها كدولة واعية بدورها الدولي، قادرة على الوساطة في الصراعات وتجهيز المساعدات وبلورة الخطابات في المنتديات الدولية.

تأسيس هيكل للمساعدات الإنسانية

تطوُّرت أساسات نظام المساعدات الإنسانية في دولة قطر على مدار العقدين السابقين وتجتمع على صياغته عدة جهات فاعلة محورية مثل مؤسسة قطر الخيرية، وجمعية الهلال الأحمر القطري، ومؤسسة التعليم فوق الجميع، وصندوق قطر للتنمية.

وتتوافق هذه المؤسسات المستقلة بصورة رسمية مع أولويات السياسة الخارجية الوطنية بشكلٍ وثيق. وتمتد محفظة أعمالها المشتركة عبر أكثر من 60 دولة وعدة قطاعات تتضمن الإغاثة في حالات الطوارئ والتعليم والصحة والمعيشة والبُنية التحتية. وفي 2023، وصلت عمليات مؤسسة قطر الخيرية إلى أكثر من 10 مليون شخص حول العالم مع حجم تدخلات وصل إلى 328 مليون دولار أمريكي (مؤسسة قطر الخيرية 2023: 11)، في حين ساعدت جمعية الهلال الأحمر القطري نحو 6,5 مليون مستفيد في 29 دولة، وركزت على الاستجابة للقضايا الصحية والكوارث (جمعية الهلال الأحمر القطري 2023: 9). أما مؤسسة التعليم فوق الجميع، فقد وفَّرت التعليم لأكثر من 12,3 مليون طفل خارج المدرسة من خلال مبادرتها العالمية "تعليم طفل" (مؤسسة التعليم فوق الجميع 2024: 6)، وأنفق صندوق قطر للتنمية ما يزيد على 500 مليون دولار أمريكي في جهود الإغاثة وتمويل التنمية عبر 62 دولة (صندوق قطر للتنمية 2023: 11).

ولا يعكس هذا التنسيق المؤسسي الكفاءة الإدارية فقط بل إنه عرض مدروس لقِيم التكافل والسخاء والمسؤولية الأخلاقية المتأصلة في الأخلاقيات العربية والإسلامية. ومن هذا المنطلق، صار العمل الإنساني تعبيرًا عن ثقافة وهوية بقدر ما هو أداة من أدوات الدبلوماسية.

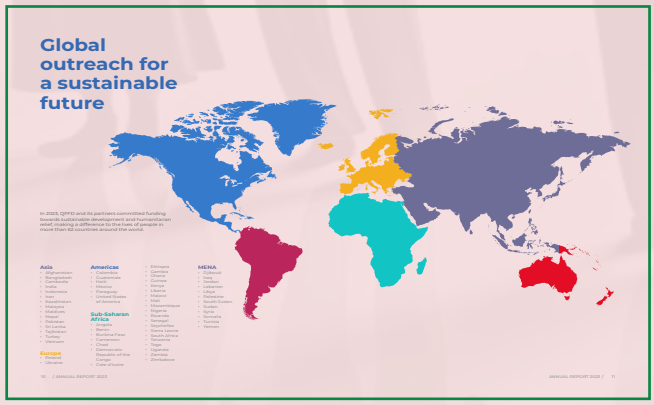

الشكل (1): الانتشار العالمي، المصدر: صندوق قطر للتنمية (2023: 11-10).

https://exsjwzu9tz6.exactdn.com/wp-content/uploads/2024/09/QFFD-AnnRpt23.pdf

من الأزمات الإقليمية إلى المشاركة العالمية

اكتسبت الدبلوماسية الإنسانية لدولة قطر مكانة بارزة في أثناء الربيع العربي، عندما أصبحت الجهة المانحة الرئيسية في الدول المنكوبة بالصراعات مثل: ليبيا، وسوريا، واليمن، وقطاع غزة، إلى جانب مناطق أخرى. وفي هذه البيئات المضطربة، عملت المساعدات كعامل استقرار وكوسيلة لكي تُرسِّخ دولة قطر مكانتها كجهة فاعلة موثوقة ومستقلة في غمار الاستقطاب الإقليمي. في قطاع غزة، تجلت بوضوح المساعدات القطرية وحظيت بمكانة رمزية. ومنذ تدشينها في 2012 بواسطة سمو الأمير الوالد الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، أشرفت اللجنة القطرية لإعادة إعمار غزة على مشاريع تجاوزت قيمتها مئات الملايين من الدولارات، من المنازل والمستشفيات وحتى بُنية الطاقة التحتية (وزارة الخارجية القطرية). وخلاف جهود إعادة الإعمار، واصلت المؤسسات القطرية توفير الدعم الصحي والتعليمي والنفسي من خلال الشراكات مع وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (أونروا)، ومنظمة الصحة العالمية، والمؤسسات الأخرى. وتؤكد هذه الجهود على التزام دولة قطر الراسخ حيال الصمود الفلسطيني والاستقرار الإقليمي، وهو ما يصفه العلماء بشكلٍ من "الدبلوماسية الأخلاقية".

وفي سوريا، ساهمت دولة قطر بمساعدات إنسانية تجاوزت قيمتها 2 مليار دولار منذ 2011، ودعم اللاجئين والمجتمعات المشردة داخليًا من خلال مبادرات من بينها برنامج كويست التابع لصندوق قطر للتنمية، والمشاريع التعليمية لمؤسسة التعليم فوق الجميع (وكالة الأنباء القطرية 2022). ومن خلال العمل مع شركاء الأمم المتحدة مثل: صندوق الأمم المتحدة للأطفال (اليونيسيف)، وبرنامج الأغذية العالمي، وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ترسخ دولة قطر مساعداتها الإقليمية ضمن أُطر الأعمال الإنسانية متعددة الأطراف، وتعزيز سمعتها كجهةٍ فاعلة عالمية مسؤولة (صندوق قطر للتنمية 2023).

أما في الصومال، امتدت الدبلوماسية الإنسانية القطرية إلى شرق إفريقيا، ونفَّذت مؤسسات قطر الخيرية وجمعية الهلال الأحمر القطري وصندوق قطر للتنمية، برامج بخصوص الأمن المائي وتوزيع الطعام والخدمات الصحية التي تصل إلى ملايين الصوماليين كل عام. ولم تُحسِّن هذه التدخلات الظروف المعيشية للأُسر فحسب، بل عززت حضور دولة قطر في منطقة القرن الإفريقي، حيث يدعم التعاون الإنمائي عادة مشاركاتها الدبلوماسية.

الموازنة بين المبدأ والقوة

في حين أن الدبلوماسية الإنسانية لدولة قطر قد تسببت في الارتقاء بمكانتها الدولية، فلم تمض دونما

جدال، وفي حين أن بعض النقاد اتهموا الدوحة بتسييس المساعدات أو التوافق مع جهات فاعلة محددة في مناطق الصراع، فقد كشفت هذه النقاشات كذلك عن تحوُّل الدبلوماسية الإنسانية إلى موقع للتنافس الجيوسياسي، ووسيلة للدول الصغيرة لتأكيد نفوذها من خلال وسائل مشروعة وسلمية عوضًا عن القوة. سَعت دولة قطر إلى التصدي لهذه الانتقادات من خلال إصلاحات مؤسسية وتدابير لتعزيز الشفافية. وقد ساهم تأسيس هيئة تنظيم الأعمال الخيرية عقب التوترات الإقليمية في الإشراف المركزي على المنظمات غير الحكومية لضمان امتثالها للمعايير الدولية. وشكَّلت هذه الخطوة إصلاحًا للحوكمة وإشارة دبلوماسية في آنٍ واحد، مفادها أن نظام المساعدات الإنسانية القطري يعمل في ظل معايير المسائلة العلمية، ولا يتجاوزها. ومن خلال اتساق الأصالة الثقافية مع أفضل الممارسات الدولية، صاغت دولة قطر نموذجًا مميزًا للأعمال الإنسانية يسد الفجوة بين القناعات الأخلاقية والبراغماتية الدبلوماسية (الموازنة بين القِيم والمصالح).

وفي جوهرها، تُجسد المساعدات الإنسانية القطرية فكرة مفادها أن المساعدات يُمكن أن تكون إيثارية واستراتيجية. وتتأصل تدخلاتها في مبادئ التعاون الإسلامية وقِيمة الكرم الثقافية، ومع ذلك فهي تدعم بالتزامن القوة الناعمة من خلال غرس الثقة والأصالة الأخلاقية.

استشراف المستقبل: نحو نظام إنساني متعدد

تكشف التجربة القطرية تحوُّل المشهد الإنساني، حيث صار متعدد الأقطاب بشكلٍ متزايد كما أنه متعدد ثقافيًا. ويقدم نموذجها للتنسيق المركزي والشرعية الثقافية والعمل الاستراتيجي متعدد الأطراف، دروسًا للدول الصغيرة التي تسعى لإحداث تأثير من خلال التعاون بدلاً من الإكراه. وبتأصلها في رؤية قطر الوطنية 2030، تدعم الدبلوماسية الإنسانية القطرية السياسة الخارجية ورؤية أوسع للأعمال الإنسانية والتعاون والاستدامة. ومع ذلك فإن استمرار مصداقيتها يعتمد على الشفافية وتنويع الشراكات، ولاسِيَّما أوجه التآزر بين دول الجنوب، وتكامل الاستدامة ومجابهة آثار تغيُّر المناخ. وفي الوقت الذي تتفاقم فيه الأزمات العالمية كشفت دولة قطر أن التأثير يمكن ألا يستمد من القوة بل من المسؤولية الأخلاقية والالتزام المتواصل حيال التضامن الإنساني.